المقدمة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه وعمل بسنته إلى يوم الدين.

وبعد...

فللأدب الجاهلي جذور ضاربة في أعماق التاريخ ولكنها تمتد أيضاً إلى الوجدان العربي الجمعي، ذلك أن الأدب الجاهلي كان منطلقاً راسخاً وقوياً للعقلية العربية، والثقافة العربية تأثرت بقيمه وتلوّنت ببعض خصاله ربما إلى عصرنا الحاضر..

ومهما تغيرت الحياة العربية ومهما طرأ عليها من تقدم أو رقي بفعل الإسلام أو بفعل الحضارات المتعددة المتعاقبة التي مرت على العرب فقد بقي في وجدانهم شيء من تراث آبائهم الأولين يحملونه في نفوسهم أينما كانوا وحيثما حلوا.. ولو كانوا في ظلال أزهى المدنيات وأرقى الحضارات..

ومهما حاول العربي أن ينطبع بطبائع غيره فإن شيئاً «ما» في فطرته وتكوينه يجعله يتصرف في لحظة «ما» بطريقة عربية فيها خلق عربي مميز يفارق أخلاق الآخرين ويتميز عنهم..

أولى خطوات البحث: هذا التكوين الثقافي العربي المميز الذي رأينا أن نبحث عن جذور للأدب الجاهلي فيه..

والأدب الجاهلي أدب راقٍ وعلى درجة عالية من السمو النفسي والخلقي تطرزه العواطف الجياشة وتزينه العقلية الفذة التي تمتّع بها شعراؤه وأدباؤه وصاغوها حِكماً وتجارب في أدبهم بقيت مناراً للمهتدين يؤمها السالكون ويتمثل بها المتمثلون في كل وقت وحين..

لم يعفها القدم ولم يغّيْرها تعاقب الحقب والدخول الطاغي للحضارة المادية على عالم الإنسان وكأن أصعب ما تغيره الحضارة هو الإنسان، وتبديل سماته، والتأثير في طباعه.

تَمَيزُ هذا الأدب يكمن في قوة العقلية للمبدعين الذين أبدعوه واتساع مداركهم النفسية ونبوغهم الوجداني الخلاق مما جعله يبقى على مدار فترة طويلة من الزمن مثالاً يحتذى لكل المبدعين في أمة العرب، وإلى مطلع هذا القرن وربما فيما سيأتي من بعده فقد مثل الأدب الجاهلي أساساً متيناً للأدب العربي كان فيه المنطلقَ والغايةَ المحتذاةَ.

هذا الأدب الأساس نرجع إليه بين فينة وأخرى ربما لنفهم أدبنا الحاضر من ناحية ولنفهم تركيبتنا الذاتية وجبلتنا التي جبلت عليها نفوسنا وأخلاقنا من ناحية أخرى. هذا الأدب لم يأت قطعاً من فراغ ما دام تأثيره قد امتد ليؤثر في حياة أمة في كل تاريخها وفي جميع أطوارها.

لم يكن مبدعوه قوماً جهالاً متخلفين غير مستمسكين بحبل من علم أو أدب أو ثقافة. لقد كانوا قوماً متعلمين مثقفين على درجة عالية من الوعي والإحساس، ذلك أن هناك غنىً إنسانياً ووعياً فكرياً في الإنتاج الأدبي الجاهلي فتساءلت وتعجبت، كيف لشعرائنا أن ينتجوا هذا الأثر الخالد؟ ومن أين لهم بهذه الأفكار؟ كيف تهدي الناقة زهيراً إلى أن يقول:

ومن لا يصانع في أمور كثيرة يُضَـرَّسْ بأنيابٍ وَيُوطَأْ بمَنْسَم[1]

وكيف لهذا البدوي الجلف الذي نكاد نقشعر من شدة جفائه وضربه لنا الأمثال بتمزيق أنياب السبع ورفس الناقة برجلها، أن يقول لنا في بيت آخر:

لهم راحٌ وراووقٌ ومســـكٌ تُعـلُّ بـه جلـودُهـــمُ ومــاءُ[2]

وما هذا الفارق الصارخ بين البيئتين: بيئة القسوة والصحراء والحيوان المفترس، وبيئة الرجال المنعمين الذين يغسلون جلودهم المرة تلو الأخرى بالماء والمسك، إن هذا لشيء عجب ! وأين نحن من قوله:

(1) ابن أبي سلمى، زهير، ديوانه، وشرح شعره، صنعة أبي العباس ثعلب، تحقيق فخر الدين قباوة، ص214، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1981.
(2) المصدر السابق نفسه، ص 148.

والستر دون الفاحشات وما يلقـاك دون الخـير مـن ستـر [1]

من أين لشاعرنا بهاته الأفكار وهاته القيم؟ وكيف تقلب في أشعاره بين أحوال عدة؟ وظروف تتشابه أحياناً وتتناقض أحياناً أخرى؟ ومن هنا أردنا أن نتعرف مدى الأفق الثقافي للشاعر " النموذج " وكيف ألقى بظلاله المكانية والزمانية والحضارية بشكل عام على إنتاجه الأدبي؟

من هنا كانت هذه الثقافة الجاهلية شاغلنا.

ما أهميتها؟ وما مداها؟ وما هو أثرها في عقليتهم وأدبهم؟

فتفحصت الموضوع وتدبرته، فوجدته جديراً بالبحث والتأمل من ناحية كونه لبنة ممهدة لدراسات أخرى قد تكون أعمق وأشمل وتغطي نواحي أخرى من تكوينات هذه الثقافة، وآثارها..

ولأن التاريخ الجاهلي يشوبه شيء من الغموض، وتقل الثقة فيه لأجل ضياع كثير من أخباره ولأن المدوَّن المتاح منه لا يعطي صورة كاملة عن الحياة الجاهلية وثقافتها، فقد التجأت إلى الشعر الميدان الذي يصعب فيه التزوير والتغير ولو كان ذلك غير مستبعد فيه كلية، ولكن درجة التزوير تكون فيه أقل أو ربما يكون التزوير محل شك من النقاد فيكون الباحثون على حذر مما شُكِّك فيه.

وإذا شكك الباحثون في قيمة بعض الأدب الجاهلي وفي جاهليتها فإنهم أجمعوا أو قاربوا أن يجمعوا على صحة كثير من الشعر المنسوب للعصر الجاهلي..

وهذا الصحيح كان محل اعتماد الباحث..

يستخلص البحث مادته من الدواوين التي وثقها الرواة، والتي حققت إن أمكن، أو بالرجوع إلى أبيات شعرية شائعة في كتب الأدب واللغة وغيرهما من الممكن أن نطمئن إلى صحتها..

(1) المصدر السابق نفسه، ص 169.

ولا نريد أن نأخذ من تلك الكتب والمصنفات التاريخية والدينية واللغوية التي اختيرت وهذبت وشذبت من الرواة والجامعين والمصنفين والكتاب والناسخين.. وغيرهم بما يلائم الذوق العام.

ومع أننا ندرك أن الشعر يمكن أن يكون عرضة للحذف والتغيير والإبدال والإسقاط والضياع إلا أنه تبقى له تلك النظرة المتفردة التي تبعد الشعراء في بعض الأحيان عن دائرة الحقيقة المفروضة، وعن دائرة المسؤولية الاجتماعية في أحيان أخرى..

ونحن في منظورنا الحديث لا يمكن أن نضع أي قيمة دينية أو دنيوية.. من القيم إلا في منظور الحقيقة الفنية باعتبار أن الشعر مرآة تعكس المجتمع، والشاعر يخلق بفكره ورؤاه المتميزة أشياء تدور في ضمير الأمة أو في وساوسها، وهو خير من يبرز ذلك ويصوغه للناس. إنه قادر على إبراز أشياء ما كان العربي يسمح لنفسه بالتحدث بها أو إبرازها أمام الناس بأي حال من الأحوال بحكم طبيعته المتحفظة. يقول امرؤ القيس:

ومثلك بيضاء العوارض طفلة ... لعوب تنسيني إذا قمت سربالي
إذا ما الضجيع ابتزها من ثيابها ... تميل عليه هونة غير مجبال
سموت إليها بعدما نام أهلها ... سمو حباب الماء حالا على حال
فقالت سباك الله إنك فاضحي ... ألست ترى السمار والناس أحوالي
فقلت يمين الله أبرح قاعدا ... ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي
حلفت لها بالله حلفة فاجر ... لناموا فما إن من حديث ولا صال
فلما تنازعنا الحديث وأسمحت ... هصرت بغصن ذي شماريخ ميال
وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا ... ورضت فذلت صعبة أي إذلال[1]

وكأني بالعربي يرفض قطعاً أن يسمع كلاماً كهذا، لأنه يخرجه عن دائرة الجد والحزم والشرف.. وإن كان ضمناً يستلذ بتكرار هذه المقاطع، ويتلذذ ببديع تلطف صاحبها وشدة

(1) الكندي، امرؤ القيس بن حجر الكندي، ديوانه، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، ص 130، 131، طبعة دار المعارف، مصر، 1958.

مكره، ويعجب لهذا الوصف والجمال، ولذا فإنه حفظ لنا هذا الجمال الفني الرائع طوال قرون عدة لم يمسسها بسوء كما نظن. تقديراً لهذا الإبداع والتصوير الفني الرائع.. وإن كان يتناقض مع طبيعته الصارمة الصلبة التي تحافظ على الشرف والعرض وتكره حتى مجرد التعريض..

وهذا الفن الذي يجوز فيه ما لا يجوز في غيره إذن هو المتنفس للطبيعة البشرية عند العربي، وهو ممثل للجانب الآخر المخفي من شخصيته، إذ إن مجال الحرية فيه يتسع لقول كل شيء فلا مصادرات ولا حدود ولا التزامات ولا خطوط حمراء.. شعر فيه كل ما يهم العربي وكل ما يدور بخلده..

فالشعر إذن هو الطريق الأكثر صفاءً.. لصفاء نفوس قائليه ولقدراتهم غير المحدودة في تناول شؤون الحياة والمجتمع، وقد بلغ هذا الشعر حداً من النضج والاستواء إلى درجة تجعل من غير المعقول أن يكون تناولنا له من وجهة نظر بدائية غير مسؤولة أو أن نعتبره دون مستوى الإبداع الفني والرقي الفكري الذي ميز المبدعين عبر كل العصور..

إن المتأمل في الشعر الجاهلي لا يمكن إلا أن يقف وقفة احترام وتقدير كاملين لهاته الشخصيات الواعية بما حولها وفي نظرتها للنفس الإنسانية وفي تحليلها للصراعات داخل المجتمع.. انظر إلى زهير حيث يقول:

ومـن لـم يصـانـع فـي أمـور كثـيرة يضـرس بأنياب ويوطأ بمنسـم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفرْهُ ومن لا يتق الشتم يشتـم[1]

إنها سياسة المهادنة والمرونة والرضا ببعض الهنات مقابل حفظ النفس، وصيانة الحق.. إنه حقاً يمكن أن يكون مبدءاً سياسياً محترماً في هذا العصر.

كل هذه العناصر:

1- عنصر الحرية الفكرية المنبسطة في الشعر الجاهلي والمعبرة عن وجهات نظر ومواقف لا يمكننا أن نجدها في غيره.

(1) انظر: شرح المعلقات السبع للزوزني، ص 156، مكتبة المعارف، بيروت، 1994.

2- عنصر الوعي والبروز العقلي.. والمنطق القولي الآسر بحق وغير ذلك من الميزات التي ربما لن نجدها في المصادر الأخرى.

3- وأخيراً كون الشعر الجاهلي عملاً فنياً يصعب فيه التزوير والتزييف، وإن كان ذلك غير مستحيل.

ولا نريد هنا أن نناقش قضايا الوضع والنحل لسبب بسيط جداً: وهو أننا حتى لو سلمنا بأن بعض ما قدم إلينا على أنه شعر جاهلي هو كلام منحول من بعض الإسلاميين، فإن ذلك لن ينقص من قيمته في بحثنا شيئاً لأن من نحل شعراً للجاهليين لا يعدو أمره أن يقلدهم ويسير على منوالهم ونهجهم في قولهم.

والاختلاف فقط في الزمن أو في الغرض الذي من أجله نُحل الشعر ونُسِب إلى الجاهلية وهو لا يعدو أن يكون للمفاخرة بكثرة الشعر أو المباهاة بالنسب أو غيرها..

وما دام الشاعر قد جسد شخصية الجاهليين.. فهذا هو كل مرادنا.. وليس هناك فرق كبير عندنا بين شخصية جاهلية أصيلة.. وبين شخصية جاهلية شبيهة بالأصيلة، فشبه الأصل أحياناً يقوم مقام الأصل في حال انعدام البديل[1].

كل هذه العناصر هي سبب كاف لجعل الشعر ميداناً خصباً لدراسة الميراث الثقافي ولكن بقيت مسألة معالجة الشعر الجاهلي وتحليله ودراسة بعض الظواهر المحيطة به، مما تناوله بعض العلماء من قبل بالبحث والتحليل.

وفي الابتداء أتعقب أهم المفاهيم المتعلقة بصلب البحث في فصل تمهيدي لأقف مع

(1) انطلاقاً من مبدأ ما لا يدرك كله لا يترك جله، وفي ظننا أنه لا توجد فروق جوهرية على صعيد الشخصية العربية في الفترة الإسلامية عنها في الجاهلية لأن التغيرات الجذرية تتطلب زمناً طويلاً لحدوثها نتيجة لمتغيرات ومفاهيم جديدة وهذا لا ينفي ما أثاره الإسلام في نفوس العرب من أخلاق حميدة ومثل سامية، ولكن طبيعتهم كانت مهيأة تماماً لتقبل ذلك كما أسلفنا في الصفحات الماضية إذ إن تهيئة العرب لحمل مشعل الإسلام قد بدأت من فترة متقدمة في الجاهلية فيما يبدو وهذا ما أشار إليه بعض الباحثين الإسلاميين كالشيخ الشعراوي وغيره.. انظر تفسير الشعراوي، المكتبة العصرية، ص 336، بيروت، وهذا النقاش حول هذه القضية هو نقاش نظري محض.. فنحن اعتمدنا في هذا البحث على الدواوين المحققة والشعر الجاهلي المتفق عليه.

القارئ على أرضية مشتركة تفيدنا في التصورات اللاحقة فأركز على مفهوم الثقافة لأعرفها تعريفاً وافياً أصل معه إلى نتائج استعملتها فيما سيعرض بعدُ في أثناء البحث دفعاً لأي لبس.

أناقش في إطار ذلك الملابسات التي تتعلق بمفردات البحث وقضاياه الممهدة خدمةً للبحث واختصاراً للزمن وتوخياً للدقة المنهجية في استعمال المصطلحات وليكون التصور لبعض قضايا البحث تصوراً صحيحاً منطلقاً من مفاهيم علمية متفق عليها مسبقاً، ولدفع أي لبس أو تساؤلات قد تعرض للقارئ عن مصطلحات البحث وقضاياه..

وإذا كان لابد لنا أن نتعرف على ثقافة العرب من خلال معارفهم وعلومهم ولغتهم ودياناتهم وجميع أمورهم فإن هناك طريقتين لبحث الموضوع:

إما أن نستخلص هذه الثقافة من كتب التاريخ والتراث وما حملته من أوصاف مباشرة لهذه الثقافة، وإما أن نستخلصها من الشعر نفسه ديوان العرب وجامع ثقافتهم.

ولأن الشعر ليس موضوعاً ثقافياً محضاً بمعنى أنه ليس من صميم الشعر أن يتناول مواد ثقافية بصفة مباشرة ولأننا لا نملك أن نفقد الشعر ميزته الإنسانية الإبداعية والنظر إليه باعتباره كتاباً مدوناً فيه ثقافة القوم وأدبهم، فقد ارتأيتُ أن أجمع بين الطريقتين معتمداً بالأساس على كتب الأدب والتاريخ والتراث مشفعاً ذلك ما أمكن بالاستشهادات الشعرية الموثقة.

ولأن الدراسات الحديثة قد أوفت دراسة هذا الموضوع أو كادت فيمكن الاستفادة منها، وسأعتمد بوجه خاص على (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام) للدكتور جواد علي فهو جهد علمي رائع كان من العبث تجاهله وعدم الاستفادة من نتائج بحوثه المطولة والمستقصية.

وبعد أن نأخذ من الفصل الأول نتائج حول المصطلحات والمفاهيم ومن الفصل الثاني الصورة العامة للثقافة العربية في العصر الجاهلي، سنبدأ اعتماداً على هذين الفصلين في تطبيقات لأثر الثقافة العربية على القصيدة الجاهلية من محاور ثلاثة: من حيث النشأة ومن حيث الموضوعات ومن حيث التقنيات.

سيتتبع الفصل الثالث أصل الشعر العربي من خلال البحث في مبتدئه وهل لهذا الابتداء علاقة بمؤثرات ثقافية عدة منها ما يتعلق بأمور خارجية معرفية، كالغناء، والموسيقا، ومنها ما

يتعلق بمؤثرات خاصة تتعلق بتطور العقلية العربية، وغنى الحياة العربية الجاهلية التي انعكس غناها على نفسية العربي ونظرته إلى الكون والحياة مما أعطاه عاطفة فياضة نابغة وجدت متنفسها الطبعي في الشعر، وسأبتعد في هذا الفصل عن المحددات التاريخية الدقيقة مكتفياً بالإشارة إلى الظروف الثقافية العامة والخاصة التي من الممكن أن تكون بيئة مناسبة لانطلاق الشعر العربي.

أما الفصل الرابع فسيبحث في موضوعات الشعر العربي.. سأناقش في البداية بعض مظاهر الحياة الجاهلية التي أثرت في غنى وتنوع هذه الموضوعاتها ومؤثراتها الخاصة والعامة التي انطبعت على تلك الموضوعات والميزات التي اتسمت بها.

ثم أتناول نماذج للموضوعات الجاهلية وهي نماذج غاية في الاختصار ذلك أن الإسهاب والشرح ليس موضوعهما هذا البحث النقدي الذي يكتفي بالنماذج القليلة والأهم عند الباحث هو مناقشة القضايا ووضع التصور العام لها..

وسأبتعد في تصنيفات الموضوعات الجاهلية عن التصنيفات التقليدية، وأطرح فكرة تصنيف جديد يتناسب وتطور المفاهيم الحديثة وأعطى البحث نماذج على ذلك، فموضوعات القصائد الجاهلية متعددة ومتنوعة سواء أكان ذلك في خلال القصيدة الواحدة أو في خلال المقطعات والقصائد القصيرة الأخرى التي لم تدخل تصنيفات جامعي الدواوين كدواوين الحماسة وكتب المختارات الشعرية وغير ذلك.

وعلى كل يطرح هذا الفصل رؤية أخرى لموضوعات القصيدة الجاهلية انطلاقاً من مفهومه لتنوع الثقافة العربية وشمولها.

وفي الفصل الخامس كان لابد من ملاحظة أثر الثقافة التي صبغت عقلية الشاعر العربي في بنائه التقني لقصيدته من خلال استخدامه لتقنيات اللغة والقص والوحدة وغيرها..

ويجدر بالذكر أن هناك مفردات كثيرة من مفردات التقنيات الفنية التي استخدمها الشاعر العربي في بنائه لقصيدته لن يتناول البحث منها إلا القليل طلباً للإيجاز وبحثاً عن النماذج المختارة فليس غرض هذا البحث الاستغراق كما ذكرت آنفاً.

وسيعتمد البحث على التركيز في جمله ومفرداته ومفاهيمه ويحاول الابتعاد عن الإسهاب والتطويل والاستغراق، ويعتمد النماذج المختارة بعناية للتدليل على قضايا كلية ولا يستغرق الأمثلة ويستعرضها.

ولهذا حذفت كثيراً من المادة التي جمعتها لهذا البحث، أقدرها بضعفي هذا البحث أو يزيد وأبقيت فقط على المهم منها.

وسيعرض الباحث قضاياه بصورة تسلسلية منطقية من خلال الاستفادة من نتائج بحوث السابقين، ولذا فقد أسوق الحديث حول قضايا البحث وأُدخل في خلال ذلك نتائج بحوث السابقين وأشير إليهم في الهامش، وإذا ما كانت بعض النتائج السابقة لبعض البحاث تستحق المناقشة أو عليها بعض اعتراضات أو استثناءات فإنني أناقشها وأذكر الاعتراضات التي عليها..

وسأفسح المجال للشعر ليقنع القارئ بقضاياه ولا يتدخل مع النصوص الشعرية قسراً لنثرها أو ليعبر عن وجهة نظره من خلالها بصورة مباشرة فاضحة..

وقدر الإمكان أبتعد عن التدخل في النصوص الشعرية حتى بشرح المفردات إلا في القليل منها الذي يحتاج النص فيه أن أفسر بعض المفردات وإذا فسرتها اعتمدت كتب الأولين من شروح الحماسة أو المعلقات أو غيرها، وفي ظني أن النصوص الجاهلية تكون مفهومة للقارئ خاصة أن البحث يستشهد في الغالب بمقطعات صغيرة، وندر جداً أن يستشهد بقصيدة بتمامها وهذه الأبيات القليلة التي يستشهد بها تكون في الغالب واضحة للقارئين غير محتاجة للتدخل لتحليلها بالمناهج الحديثة كالبنائية أو التفكيكية أو المنهجية السيكولوجية.

والباحث استفاد من مراجع كثيرة ولكن لن يدرج منها في البحث إلا ما استفاد منه بصورة مباشرة وإذا ذكرت الفكرة وكررت عند باحثين أو أكثر فإني أذكر الأقدم منهم وأستغني عن إعادة الفكرة وتأكيدها عند أكثر من باحث، وهناك مراجع قليلة لم أستطع الوصول إليها وأشارت كتب موثوقة إلى نصوص منها فسأنقل من الكتب التي بين أيدينا بعد أن استنفدت الحيل في الوصول إلى المصدر ذاته وأشير إلى ذلك في الهامش.

والبحث ملخص من موضوعات ومفردات عدة وهدفه مركز ومحدود ويمكن أن يكون فاتحة لدراسات وأبحاث أخرى تستفيد من نتائجه أو تتبع مفردات وموضوعات لم يتناولها..

وهذا الجهد ومنتهى العمل فإن يكن التوفيق حالفني فذلك ما كنت أبغي وإن كان هناك تقصير أو أخطاء فذلك ما لا أعفي نفسي منه.

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفـى المـرء فخـراً أن تعـد معـائبـه

المؤلف